تسلية مزمار

للأديب جورج صبرديت

بقلم الأديب شفيق ذهنى

لنترك جانباً نظم الحياة وأوضاعها الفاسدة .

دعنا ننشق عبير الجزيرة المسحورة ، فثمة ترقد المروج الذهبية ، وثمة تجرى الجداول كالنضار ، وثمة يتراءى الذهب الوهاج على سوق أشجار الصنوبر والشمس تنحدر صوب الأرض مجتازة الحقول والأمواه

الشمس تنحدر صوب الأرض فتستقبلها الحقول والأمواه بصيحات كأنها رنين الذهب السبيك ، وإذ تبزغ من خدرها تسبقها بشائرها فتلمس أوراق البلوط والدلب وشجر الزان الزاهى الأخضر ، وسوق البلوط القانية تاركة آثاراً متلألئة على الشطئان المشوشبة حيث تميل كؤوس شجر الديجيتال وتتجول عساليج النوسج بين الحشائش الكثيفة المخضلة

ويستقر نفض الأشجار ، ومن ورائه تنبسط الأرض بظلالها الوارفة المديدة عبر أشجار الخلنج ، وعلى ذرى التلال ، حتى تضع الشمس أناملها الرقيقة الوردية ، وترقد حيال أبعد حدود السحابة الشرقية الصاعدة

ألا ما أعذب الخلوة البريئة فى الأحراج حين ينساب إليها الشعاع فى خفة ورشاقة ، فتنحرف الطفاوات عن الدروب والمسالك وهى تهتز وتتلون بارتجاف ظل الصنوبر القرمزى الداف العبق ومهاد الطحالب الخفية والسرخس الزغبى

ويهبط ذيل السنجاب الرمادى حيناً ثم لا يلبث إلا قليلاً حتى يقفز ، وينطلق طير الغابة منبعثاً من أغوارها فى صمت ، وتتحرك الأشياء من سكون إلى سكون

وتبهج ومضات البهاء والرواء المنبعثين من علِ ومن حول القلوب الرقيقة الحساسة ، فالقرب الملتهب ، والمرتفعات القرمزية تهمى بروعتها على الأشجار الملتفة

كل ذلك آية من آيات البهاء يبعثه الجمال العميق المقيم ، والنشوة العلوية التى لا تدين بالطاعة للمجد الناشر ذوائبه هناك ، فمن هذه النشوة يقفز الحمل الصغير وقد استخفه الطرب ، وتنتشى أرواح الرجال

اهبطى أيتها الشعاعات العظيمة ، وضمى الخليقة بين ذراعيك بنيرانك الفياضة ثم اذكرينا ، فأنت وأضواء الرذيلة المترفة الغارقة فى بحر لجى من النعيم التى تتقدم نحوك ، والمغانى السماوية ، ما أنتن جميعاً إلا سادة وعبيد للقناعة التى تعتلج فى قراراتنا ، وتمور فى أعماقنا

لأن هذا مثوى السحر ومهبط وحيه ، فهنا يتقابل أمير الجزيرة وأميرتها بعيدين عن الشطئان المدوية الصاخبة ، وهنا يجلسان كالبلبلين العاشقين ، وفى العيون والآذان والأيدى يسكبان من روحيهما كنوزاً زاخرة لا تنفد

دورى ! أى عجلات الدنيا الطاحنة ، إن مواخر الجوارى وهى تنزلق على صفحات اليم فى هدوء ، والأمانى التى خلقتها النظم وصاغتها للبشر ختمت

على قلوبهم فجعلتهم لا يغطون لساعات الجذل الحقيقية ، فترتفع الحناجر مرددة شكاياتها للعالم ، ولكنك وا أسفاه لا تسمعين هنا

إنه يناديها باسمها لوسى ، وهى وقد تعلقها الخفر رغم شجاعتها تناديه باسمه ريتشارد ، وهذان الاسمان هما مفتاحا الأنغام العجيبة التى تترنم بها الملائكة فى السماء

لوسى ! حبيبتى !

ريتشارد !

وهناك خارج نطاق الدنيا وعلى حدود الأحراج ينفخ الراعى الصغير لحواء الساهمة الحالمة فى مزماره البسيط .

إن آلة الحب الموسيقية جد قديمة وضعيفة ، وليس لها إلا أن تترنم بنغمة أو نغمتين ثم يحتويها الفناء ، ولكنك ترى الساحر الماكر يحرك أوتارها ويهزها أكثر مما تحتمل

لم يطرقا حديثاً آخر إلا لماماً ، إذ كان الفضاء الذى يحتويهما والضوء الذى يتراءى عليهما ، أشبه بنور يتراقص فوق زبد الأمواج المصطفقة وهى تلمس إحساسها المتبادل ، ثم لا يلبث حتى ينشر ذوائبه ويتسع آنة أن ترتفع النغمات الجامحة ، فتتجاوب نفساهما ، ويصاغ من أناتهما الحانية الرقيقة نغم واحد يرددانه

لربما أجاد الحب إيقاع أنغامه ، لأنه أشجى نفسيهما وأثارهما ، فأمسيا متشوقين للمناءة المدخرة فى روحيهما كزاد طبيعى

لقد رتق مشاعر الرجال والنساء وصقلها ثم فتنهما بآلته الموسيقية ، فكأنما أسكرهما وأشاع النشوة فيهما بمزماره ، أو أثار كوامن فؤاديهما ببوقه ، أو لربما أدار لهما فرقة موسيقية كاملة طربا لها ، وهو لا يزال بعد الساحر الماكر

وتملكتهما نشوة ما بعدها نشوة ، فعبا من سلاف السعادة عبا ، مع أنها نغمات موسيقية أرضية مدوية ...

ثم غابا عن الشعور ، وتاها فى عالم مسجور ، فلم يدريا شيئاً عن كنه المباهج الأولى الفائقة الحد التى تنبجس من الحواس المرهفة عندما ترتفع النفس وتحلق الأرواح السامية فى وجد وشغف لتطوف متجردة غير منظورة ، حساسة لا حد لإحساسها

لقد وضع بين أيديهما غذاء سماويًا فأكلا منه وتزودا ، وطفقا يعبان من رحيق كبير الآلهة حتى ارتويا ... وهكذا جلسا إلى مائدة يزرى خبز الحب البسيط وماؤه عليها بأشهى المآدب وأحفلها بأطايب الآكال والأشربة

اسكب الحب ألحاناً من مزمارك أيها الراعى الصغير ، وأنت أيتها الملائكة النورانية انشرى أجنحتك وارفعى بالغناء أصواتك

لقد فاضت نفساهما بما يسمو على الفلسفة ، وبلغت فطرتاهما آماداً لا يدركها العلم ، إذ صيغا لجنات الخلد صوغاً

— إنها لنغمة سماوية ادخرها الله لى

هذا ما هتف به هاتف كل منهما وهما يتعانقان ، فلقد تعلقت خواطرهما بأهداب نسيج واحد من التآلف والتوائم ، ولكم أضاءا ما تصرم من سنين ، وصبغا مستقبل حياتهما برائع الألوان

— أنت لى كما أنا لك

— لقد خلق أحدنا للآخر

وما لبثا أن دار فى خلدها أن ملائكة السماء منهمكة فى إعداد عشهما ، وأنها باذلة قصارى جهدها للتقريب بينهما

يا للنصر ! ويا للعجب ! ها هى ذى الملائكة الأبدية تنجح أخيراً فى ذلك بعد ما كابدته من نصب وآلام ، وبعد العقبات التى كانت تتزايد حيالها

— ها نحن ذان اللذان كتبا فى السماء كفرد واحد نجلس هنا

اعزف بنغماتك أيها الحب السعيد . . . اعزف واستمر فى عزفك لهذين العزيزين البريئين ، فلقد انحسر مد الألوان وجزرها عن السماء ، وتراجعت شمس النيران الغاربة من الغرب ، وقفزت الأنجم إلى الأمام وجلة وهى تنسحب أمام القمر الزاحف الذى يزيح عن كتفيه السحب الفضية المتتابعة بقدميه على ذرى الصنوبر وهو يرقب السماء

— لوسى ! ألم تحلمى بلقائى أبداً ؟

— أواه يا ريتشارد ! لقد كنت رفيق هاتفى ونجوى خيالاتى

— وإنى كذلك .

وبدا القمر صغيراً كما لو كان يطل على الحبيبين فى الفردوس مستمراً فى رحلته السماوية الخالدة ؛ فما كان يحتويهما ليل ، إنما نهار منتقب مقنع ، إذ غض نصف السماء طرفه حياء ، فلا هو إلى الظلام أدنى ، ولا إلى النور أقرب ، ولكنه عرش سماوى جمع بين الاثنين .

— يا من أنت لى ، يا من أنت لى إلى الأبد رهينة ، اهمسى فى أذنى ...

فسرعان ما يأتيه جوابها بصوت ملائكى ساحر:

— وأنت لى وحدى ؟

وتنتقل أشعة رقيقة شفيفة إلى مخبأ السرخس تحت حرج الصنوبر حيث يجلسان ، ويبحث عن الجواب فى عينيها وهى تتلفت صوبه هنيهة ، فترتجف عيناها ، ويختلج جفناها فى خفر ، وتطرق استحياء لأن روحها تبدو سافرة أمامه من خلال عينيها ...

لوسى ! زوجتى ! حياتى !

وينسج الليل خيوط ظلامه فى اتساق على غصون الصنوبر ، وتنتقل الأضواء الخفيفة وهى تطوف بهما مصغية إلى وجيبهما ، فتصمت شفتاهما ولا ينبسان

توقف لحظة عن العزف أيها الحب ! ألا لتعزف كيفما يحلو لك فإنك لن تستطيع التعبير عن قبلتهما الأولى ، فلا شىء يعدل عذوبتها ، ولا شىء يعدل قداستها ...

أيتها الملائكة التى فى السماء ! أمام مزامير الجنة الفضية تضمين أصابعك على جميع النغمات التى لا يكون الحب إلا واحدة من نغماتها ، منها تسمعينه فيطرق أذنيك ...

وهكذا يصمت الحب !

وهناك فى خارج نطاق الدنيا ، وعلى حدود الغابة يلقى الراعى الصغير الراضى عن نفسه نظرة على مزماره البسيط ، وينحرف كالطيف ، ثم يسير فى صمت وسكون ليتناول عشاءه !

الغابة صامتة ساكنة ، لا يسمع فيها صوت ولا نأمة ، اللهم إلا خشخشة أفرع الصنوبر وهى تهتز فى دوائر ودوائر تحت ضوء القمر ...

(حدائق الغبة) شفيق زهنى